15 التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية

محمد عز الدين توفيق
كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط – المغرب.

❖ مطبعة دار السلام، القاهرة، 1998 [429 صفحة من القطع الكبير].
❖ لغة البحث (الكتاب): اللغة العربية.
❖ مجال البحث (الكتاب): أسلمة علم النفس – التأصيل الإسلامي.

❑ ❑ ❑

يقدم المؤلف كتابه بأنه تشخيص للعلاقات بين الدراسات النفسية والمنظور الإسلامي بعيداً عن أي حكم مسبق حول حاضر هذه العلاقة أو مستقبلها، وكل ما يراه المؤلف دفع النقاش خطوات جديدة من أجل الكشف عن الجوانب المنهجية التي ترسم ملامح هذه العلاقة واتجاهاتها.

ولا يرى الباحث في دراسته هذه رجوعاً إلى الوراء ولا دعوة إلى تهميش الدراسات النفسية، بل العكس من ذلك هو الصحيح، حيث ستسمح هذه الدراسة بفضاء أوسع لاختيار أحسن المناهج وطرائق البحث المناسبة لدراسة الظاهرة النفسية.

كما يذكر المؤلف أن علماء النفس في الغرب يشكون بأنفسهم من الهوة الكبيرة بين النظرية والتطبيق في علمهم (مجال الدراسات النفسية)، وعندما نريد أن نستورد هذا العلم إلى بيئتنا وثقافتنا فمن المتوقع – برأي المؤلف – أن يكون ذلك أسوء بكثير مما عند الغربيين أنفسهم، حيث ستواجه النظريات الوافدة بالإضافة إلى مشاكلها الذاتية مشاكل أخرى ناشئة عن غربةِ الوسط الذي نقلت إليه. وهذا ما يدفع الإنسان العربي أو المسلم (المريض نفسياً) إلى عدم التجاوب مع العيادات النفسية القائمة في مجتمعاتهم بسبب إرتكازها إلى ثقافة نفسية لم تؤسس على معرفة صحيحة بالإنسان الذي تحاول تعديل سلوكه.

* ويميز المؤلف بين الأبحاث التي تتم في علم النفس عن غيرها في العلوم الطبيعية: فالطبيب الذي يكشف على كبد شخص مّا لا يهمه كثيراً أن يعرف بلده ولغته وثقافته ودينه وأسرته، لأن الكبد في تركيبها المرفولوجي ووظائفها الفسيولوجية لا تختلف كثيراً حسب البلدان واللغات والمعتقدات – وإن كان

هناك اختلاف وراثي بين الأفراد - فإنه لا يمنع من تعميم نتائج التجارب التي تتم في هذا المستوى. ولكن عالم النفس الذي يريد أن يدرس السلوك أو يعّدله تهمه هذه الأشياء كلها، بل هي الأساس الذي يمكن أن يصدر الحكم أو التشخيص أو المعالجة في ضوئها.

* كانت هذه هي النظرة العامة أو الأهداف العامة للمؤلف. ولكي يحقق هذه الأهداف فإن المؤلف الضخم - الذي يضم أكثر من اربعمائه صفحة من القطع الكبير - وزّع إلى ثلاثة أبواب تبحث في نوع التأصيل الذي يتناوله الكتاب. وهذه الأنواع هي: تأصيل شرعي، تأصيل علمي، تأصيل تأريخي.

ومن هنا فإن أبواب الكتاب الثلاثة تتوزع على هذه التأصيلات الثلاثة من خلال فصول عدة في كل باب من أبوابه.

* تناول الباب الأول التأصيل الشرعي لعلم النفس من خلال المفهوم الإسلامي للعلوم الشرعية. حيث يتناول المؤلف في هذا الباب الدفاع عن علم النفس بوصفه فرعاً من فروع المعرفة الإنسانية. كما يبين الموقف الشرعي الإسلامي من وجود علم بهذا الإسم، وأوجه الحاجة إليه.

ومن خلال الفصول الأربعة لهذا الباب:

- واقع علم النفس في البيئة الإسلامية
- موقف القرآن والسنة من مشروع التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية
- موقف علم أصول الفقه من مشروع التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية
- موقف الفكر الإسلامي من مشروع التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية

يستعرض المؤلف في هذه (الفصول) المواقف المتباينة من مشروع تأصيل علم النفس وهم: الرافضون بإسم الإسلام، الرافضون بإسم علم النفس، المؤيدون للمشروع والعمل على تأصيله.

كما يدافع المؤلف عن فكرة التأصيل ويبررها كحاجة: نفسية، لغوية، علمية، حضارية، إنسانية. كما يدخل الباحث في ثلاثة أنواع من التفسير العلمي

للقرآن والسنة: توسيع معاني الآيات والأحاديث، بيان السبق العلمي لها، تجميعها في إطار موضوع معين.

أما من حيث علاقة التأصيل بأصول الفقه فإنه يرى التأصيل فرضاً كفائياً، والبحث فيه شكلاً من أشكال الاجتهاد، ونتائج بحوثه علماً شرعياً، والإشتغال به عبادة.

وخلاصة ما توصل إليه المؤلف من هذا الباب في فصوله الأربعة أن علم النفس بغض النظر عن نظرياته ومنظوراته المعاصرة العديدة التي تملأ أرشيفه: إلا أنه - برأي المؤلف - علم إسلامي.

أي ينطبق عليه وصف العلم النافع أو العلم المشروع ولا بد له أن يأخذ مكانه بين العلوم الأخرى التي يحتاجها المجتمع الإسلامي.

* وفي الباب الثاني من الكتاب الذي يتناول التأصيل العلمي لعلم النفس، يرى المؤلف أن الوجهة الإسلامية أوسع من الوجهة السائدة حالياً (في علم النفس المعاصر)، وتستطيع توجيه علم النفس لتغطية الظاهرة النفسية بأبعادها ومستوياتها المختلفة، ففي الوجهة الإسلامية إغناء لموضوع علم النفس ومصادره ومناهج البحث فيه.

وقد تناول الباب الثاني من خلال فصوله مفهوم الإنسان بين النظرتين الإسلامية والوضعية، ومفهوم العلم بين النظرتين، على أساس أن تحديد مفهوم الإنسان ومفهوم العلم له انعكاس مباشر على الاتجاه الذي تأخذه الدراسة النفسية.

كما تعرض الباب لأوجه الشبه والاختلاف بين المنظورين الإسلامي والغربي في مجال البحث النفسي الأكاديمي: ابتداءً بخطوة إجراء التجارب وانتهاءً بتكوين الوجهة أوالإطار العام (علم النفس عندما يكون بحثاً نظرياً - نموذج علم النفس التجريبي). وأخيراً جاء المؤلف - في هذا الباب - على أوجه الإتفاق والاختلاف بين المنظورين (الإسلامي والغربي) في مجال الدراسات العلاجية: ابتداءً بالفحص والتشخيص والعلاج (علم النفس عندما يكون ممارسة - نموذج علم النفس الإكلينيكي).

ويستعرض الباحث في هذا الباب كذلك عرض (فرانسوابير) في كتابه (اسئلة في علم النفس) لمفهوم الإنسان عند ثلاثة من كبار علماء النفس:

- إنسان (سكينر) الخاضع
- إنسان (لورانز) المبرمج
- إنسان (فرويد) المنقسم

ويرى أن التأصيل الإسلامي سيرجع الإنسان إلى: أولوية العقل، حرية الإرادة، وخلود الروح.

ويستفيض المؤلف في تقديم العلاج الإسلامي لأمراض نفسية كثيرة:

[الإنحراف، الكِبر، الغضب، سوء الظن، القلق، الإكتئاب، الوسواس القهري، المخاوف المرضية، الإضطرابات النفسية، المس الشيطاني، السحر].

ولكل من هذه الأمراض يفصِّل الباحث في: التعريف والمفهوم الإسلامي له، الأسباب، الأعراض، العلاج الطبي، العلاج النفسي.

* ويأتي الباب الثالث والأخير من الكتاب ليتناول التأصيل التأريخي للدراسات النفسية وإسهام العلماء المسلمين فيه من خلال بحوثهم الفلسفية والفقهية والطبية.

فشمل العرض التأريخي (أو التراثي في الحقيقة) كتباً في الثقافة الإسلامية وأخرى في فروع علم النفس مستنداً في كل ذلك إلى الموسوعات أكثر من استناده إلى الكتب والمراجع المفردة.

ويقسِّم المؤلف تأصيله التأريخي من خلال تعامله مع التراث الإسلامي إلى مشروعين:

- دراسة التراث الإسلامي كطرائق ومناهج، حيث يرى أن التراث الإسلامي قد تميز بالإنسانية والأخلاقية والتكامل والتوازن والتنوع والتسامح. وإن إسهاماته كانت في المبدأ وفي المنهج وبالنتائج معاً.

[يعطي المؤلف أمثلة مطولة جداً عن بعض النماذج: القرآن وعلم النفس

والحديث النبوي وعلم النفس للدكتور محمد عثمان نجاتي، دليل الباحثين إلى المفاهيم النفسية والتراث: عرض وتكشيف - المعهد العالمي للفكر الإسلامي].

* وأخيراً يعطي المؤلف مثالاً لتأليف مدخل في علم النفس: الدوافع نموذجاً من خلال عرض نفسي إسلامي مزدوج، كمثال أو تجربة نموذجية لتأصيل باقي موضوعات علم النفس إسلامياً.

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة:

أسلمة علم النفس، التأصيل الإسلامي لعلم النفس، التأصيل الإسلامي للصحة النفسية، الدوافع من وجهة نظر إسلامية، التراث النفسي الإسلامي.

❑ ❑ ❑

ملاحظات:

- تميز الباحث بطروحاته العملية التطبيقية رغم ما تدل عليه صفحات الكتاب من فهم نظري معمق في نظريات علم النفس ومدارسه وتجاربه وعلمائه، وخاصة في مجال علم النفس الإكلينيكي والعلاج والإرشاد النفسي.
- كان المؤلف موضوعياً موسوعياً آناً واحداً، فهو يرجع إلى المصادر بكل أمانة من ناحية، ويضيف ويستدرك ويحاجج ويحاكم عن علم ورأي من ناحية ثانية.
- كنت أتمنى أن يكون الباب الثالث (التأصيل التأريخي) قبل التأصيلين الآخرين (الشرعي والعلمي). رغم أن المؤلف كان أكثر حضوراً وتفصيلاً في التأصيلين الشرعي والعلمي من التأصيل التأريخي أو التراثي.

❑ ❑ ❑